

فاعلية التنغيم في أداء دلالة النص القرآني.

رياض بوزنية*

جامعة الحاج لخضر . باتنة ، Bouzenia.ryadh@gmail.com

النشر: 2020/12/10

القبول: 2020 / 10/ 21

الإرسال: 2020/06/10

الملخص:

تبحث هذه الدراسة في دور التنغيم وفاعليته في أداء الدلالة في النصوص المختلفة بصفة عامة والقرآن الكريم بصفة خاصة. وكما هو معروف؛ فإن التنغيم كقضية تطريزية يحتل مكانة مركزية بين الفونيمات فوق التركيبية، وذلك عطا على دوره في النصوص؛ كموجه دلالي، وأحيانا كموجه نحوي يتم الاعتماد عليه في تمييز الوظائف النحوية لبعض الكلمات في سياقات معينة. وتهدف الدراسة إلى إبراز عمل التنغيم في اللغة العربية وتوضيح الدور الذي يلعبه في صياغة معاني الكلام. وقد اشتملت الدراسة مفهوم التنغيم ووظائفه، وأنواع النغمات، وكذا نماذج مختلفة هدفها الإجابة عن إشكالية البحث الرئيسة وهي مدى فاعلية التنغيم في أداء المعنى. وقد خلصنا إلى أن للتنغيم دورا هاما لا يقل عن دور الكلمات والتركيب والصيغ الصرفية، وعليه فإن الإحاطة بهذا المبحث من ضرورات دراسة اللغة واستعمالها.

الكلمات المفتاحية: التنغيم، النغمة، الدلالة، التطريز، السياق، النص القرآني.

The effectiveness of intonation in the performance of meaning of the qur'anic text

* المؤلف المرسِل: رياض بوزنية ، bouzenia.ryadh@gmail.com

Abstract: This study examines the role of intonation and its effectiveness in performing significance in various texts in general and the Holy Quran in particular. As is well known, intonation as a prosodic issue occupies a central position among the super structural phonemes, due to his role in the texts, as a semantic guide, and sometimes as a grammatical guide that is used to distinguish the grammatical functions of some words in certain contexts. The study aims to highlight the work of intonation in the Arabic language and clarify the role it plays in formulating the meanings of speech. The research included a theoretical study that included the concept of intonation, its functions and types of tones, as well as various models in the main research problem, which is the extent of the effectiveness of toning in performing the meaning. We have concluded that intonation has an important role no less than the role of words, structure, and morphological formulas. Accordingly, taking note of this topic is one of the imperatives of using and studying the language.

Key words: Intonation, tone, Prosodic feature, Signification, the Holy Quran.

مقدمة

يعتبر علماء اللغة المحدثون دراسة الأصوات أول خطوة في أي دراسة لغوية ، لأنها تتناول أصغر وحدات اللغة ، ونعني بها الصوت ، الذي هو المادة الخام للكلام الإنساني. وعلى هذا فالدارسة الصوتية هي تمهيد للدراسة الصرفية والمعجمية والتركيبية والدلالية. ولما كان الأمر كذلك فقد غني أهل كل لغة بأصوات لغتهم.

غير أن اختلاف الوحدات الصوتية من حيث النوع والكم والمظهر قد جعل بعضها يستأثر بالاهتمام دون البعض الآخر ، وهكذا نلاحظ أن دراسة أصوات الأبجديات قد حظيت باهتمام واسع ، ، فتم إحصاؤها ووصف مخارجها ، وتحديد صفاتها ، ومعالجة عيوب نطقها. ومثل ذلك دراسة المقاطع ، والنبر .

وبالمقابل ، فإن من الوحدات الصوتية ما لا يظهر في شكل غرافي (خطي أو كتابي) ، ولا يمثل صوت واحد أو مقطع أو كلمة واحدة ، بل لا يظهر إلا في الجملة. وهو ما يعرف في الدراسات الصوتية بالتنغيم ، الذي كان جانب الاهتمام به أقل من أهميته الحقيقية ، وربما يرجع ذلك إلى الفلسفة الشكلية للسانيات الحديثة ، وبسبب مبدئها الخطي في تحليل الوحدات اللسانية "أفضت المدارس اللسانية التقليدية إلى خلاصة مفادها أن الزمن الذي تتعاقب في عضونه وحدات السلسلة الكلامية هو زمن ذو بعد أحادي وخطي ، وكان من نتائج هذا التصور للزمن ولعلاقته باللغة الخلوصل إلى تقطيعها قطعاً"¹.

ترجع بداية الاهتمام بالتنغيم كمصطلح ومفهوم في الدراسات اللغوية العربية إلى القرن العشرين ، وتزايد الاهتمام به بفضل ما توصلت إليه نظرية علم اللغة النظامي ، التي مهد لها ووضع أسسها اللغوي الانجليزي فيرث ، الذي أكد على أهمية الملامح التطريزية في نظرية المعنى ، ثم أتم بناءها من بعده ماك هاليداوي. وعليه أصبحت المسائل الصوتية ذات أولوية في الدراسات اللغوية ، بل يؤكد فيرث على أن أي وصف للغة أو وصف المعنى في أي لغة يجب أن يمر أولاً عبر وصف مكوناتها الصوتية.²

وعليه ، ارتأينا في هذه الدراسة أن نتناول العناصر التالية:

- 1- مفهوم التنغيم.
- 2- التنغيم في التراث اللغوي العربي: بين النفي والإثبات.
- 3- وظائف التنغيم في العربية.

1- مفهوم التنغيم: "Intonation"

النغم في اللغة جرس الكلام وحسن الصوت في القراءة وغيرها.³

وأما اصطلاحاً ، فالتنغيم مصطلح لساني يقابل "Intonation" في الفرنسية والانجليزية ، وهو يشير إلى التلوينات الموسيقية التي تظهر أثناء الأداء ، فالكلام لا يسير على نسق صوتي موسيقي واحد ، بل ينخفض الصوت ويرتفع ، وتعلو درجته وتنزل بحسب ما يختلج في صدر المتكلمين من المعاني. وهو مظهر عام في كل اللغات. ويعتبر الأستاذ إبراهيم أنيس أول من أدخل هذا المفهوم إلى الدرس اللغوي العربي وسماه "موسيقى الكلام"⁴ وقد لاحظ إبراهيم أنيس "أن الإنسان حين ينطق بلغته لا يتبع درجة صوتية واحدة في النطق

بجميع الأصوات ، فالأصوات التي يتكون منها المقطع الواحد ، تختلف في درجة الصوت وكذلك الكلمات قد تختلف فيها ... ويمكن أن نسمي نظام توالي درجات الصوت بالنغمة الموسيقية.⁵ وقد جاء في معجم علم الأصوات بأن التنغيم هو: " إعطاء القول الأنغام المناسبة والفواصل المناسبة. وقد يكون القول كلمة أو جملة أو جزءاً من الجملة".⁶

في الواقع ، هناك شبه إجماع حول مفهوم التنغيم ، ولكن اختلاف زوايا النظر إليه أدى إلى تعدد التعريفات. فمن الباحثين من عرفه من خلال آلية حدوثه ، وهكذا كان التنغيم هو علو الصوت وانخفاضه نتيجة اهتزاز الوترين الصوتيين ، ومن هؤلاء نجد دانيال جونز الذي يقول: "التنغيم ربما يعرف بأنه التغيرات التي تحدث في درجة الصوت في الكلام والحديث المتواصل ، هذا الاختلاف في النغمة يحدث نتيجة لتذبذب الأوتار الصوتية"⁷

فالتنغيم حسب دانيال جونز **Daniel Jones** راجع إلى ذبذبة الأوتار الصوتية ، وهو ما يؤدي إلى اختلاف درجات الصوت ، وهو برأينا تعريف غير دقيق ، إذ أن توتر الحبال صوتية يحصل في أحوال كثيرة دون أن نسمي ذلك تنغيماً ، فمنه النبر مثلاً ، ومنه كل الأصوات المجهورة التي تحصل باهتزاز الوترين الصوتيين ، وحتى علو الصوت وانخفاضه يتعلق بآليات أخرى كالرنين والتجاويف وتيار الهواء المستغل في عملية التصويت ، وعليه نميل إلى القول بأن علاقة التنغيم باهتزاز الوترين الصوتيين ليست واضحة ، وربما تحتاج إلى بحوث تجريبية لإثباتها مخبرياً.

ويقترح من رأي دانيال جونز تعريف روبنز **R.H.Robbins** للتنغيم بأنه تتابعات مطردة من الدرجات الصوتية المختلفة⁸ ، ومثله بريتل مالبرغ **Bertil Malmberg** الذي يعرفه بأنه تنوع في درجة الصوت⁹. وقد سار بعض الباحثين العرب على هذا النهج ، ومن هم عبد الفتاح عبد العليم البركاوي أثناء دراسته لفن الأداء القرآني ، إذ ذكر بأن " المراد بالتنغيم اصطلاحاً تنويع أداء النغمات من حيث الحدة والغلط ، وكما ذكرنا من قبل فإن الحدة والغلط يتوقفان على عدد الذبذبات الصوتية ، إذ كلما كان عدد الذبذبات كبيراً كلما كانت النغمة حادة ، وكلما قل وصفت النغمة بأنها غليظة".¹⁰

ومنهم من نظر إليه من خلال مظهره فجعله موسيقى الكلام ، أو الظواهر الصوتية التي تلف المنطوق كله ، ومن هؤلاء نجد تمام حسان الذي يعرفه بأنه: " الإطار الصوتي الذي تقال به الجملة في السياق"¹¹. وإبراهيم أنيس الذي أطلق عليه موسيقى الكلام. وأما ماريو باي

Mario Pei فقد عرفه في كتابه أسس علم اللغة بأنه "تتابع النغمات الموسيقية أو الإيقاعات في حدث كلامي معين"¹².

ومع أن هذا الكلام صحيح ، إلا أنه ليس تاماً أيضاً ، فالتنغيم ليس مجرد التنويعات الصوتية في الكلام ، لأن تلك بالظواهر التطريزية التي يختص بها فن الأداء ، أما التنغيم فإنه يقتصر بأداء دلالات معينة نتيجة الاختلاف في درجات الصوت المختلفة بين الأجزاء المختلفة من الجملة أو من الكلام.

وفئة أخرى من الباحثين ركزت على الوظيفة الدلالية للتنغيم فعرفته بأنه الدرجات الصوتية المختلفة في أداء الجمل بحسب المعاني التي يريد المتكلم إيصالها للسامع. ومن هؤلاء نجد كمال بشر يذكر بأن "التنغيم هو الخاصية الصوتية التي تلف المنطوق بأجمعه ، وتتخلل عناصره المكونة له ، وتكسبه تلونا موسيقيا معيناً حسب مناه ومغناه ، وحسب مقاصده التعبيرية ، وفقاً لسياق الحال أو المقام"¹³.

فالتنغيم إذا يقتصر بأداء المعنى ، وهذه سمة تفرقه عن باقي الظواهر التطريزية الأخرى ؛ يقول أحمد البايبي: "إن للتنغيم بالكاد عدداً من المميزات التي تميزه عن الملامح التطريزية الأخرى. ففي المقام الأول إن التنغيم له معنى ، أما الملامح الأخرى ، التطريزية وغير التطريزية ، ليس لها في ذاتها معنى ، لكنها تفيد فقط في التمييز بين المفردات اللسانية المختلفة على مستوى المعنى... إن التنغيم يحمل من خلال نطاقاته معاني"¹⁴ ، ويرى الأستاذ حازم علي كمال الدين بأن التنغيم يؤدي وظيفة دلالية كالمورفيمات تماماً¹⁵.

فمما سبق نخلص إلى أن التنغيم هو تلك التنويعات الصوتية التي يستعملها المتكلم لإبراز معانٍ مقصودة ، أو هو التلوينات الموسيقية التي تظهر أثناء الأداء ، والتي يكون لها تأثير في أداء دلالة الكلام وتوجيه أغراضه.

2- التنغيم في التراث اللغوي العربي: بين النفي والاثبات:

التنغيم فونيم فوق تركيب (غير قطعي) تم رصده في معظم اللغات. غير أن التطرق لهذا المصطلح ولمفهومه في التراث العربي قد شكل نقطة خلاف بين الدارسين العرب المحدثين. ويدور حول الخلاف حول مسألتين ؛ الأولى هي : هل عرفت العربية ظاهرة التنغيم ؟ أو هل التنغيم موجود في اللغة العربية الفصحى ؟

والثانية هي: هل أدرك علماء العربية القدامى ظاهرة التنغيم؟

أما المسألة الأولى فقد جاءت تحت تأثير المستشرق برجستراسر الذي نفى وجود هذه الظاهرة في تراثنا بقوله: "فتعجب كل العجب من أن التحوين والمقرئين القدماء لم يذكروا النغمة ولا الضغط أصلاً، غير أن أهل الأداء والتجويد خاصة، رمزوا إلى ما يشبه النغمة، ولا يفيدنا ما قالوه شيئاً، فلا نص نستند عليه في إجابة مسألة: كيف كان حال العربية الفصيحة في هذا الشأن؟ ومما يتضح من اللغة العربية نفسها، وفي وزن شعرها أن الضغط لم يوجد فيها، أو لم يكد يوجد"¹⁶.

والذي يفيد هذا الكلام أن العربية قديماً كانت خالية من التنغيم، وأوزان الشعر العربي حسب برجستراسر شاهدة على ذلك، رغم تسجيل بعض الإشارات من أهل الأداء والتجويد، لكنها غير ذات فائدة، إذ لا تسمح لنا بأخذ فكرة عما كانت عليه العربية في هذا المجال.

وقد تلقف بعض الدارسين العرب المحدثين هذا القول، فتبنوه، ورددوه، وزين في عقولهم، فهذا أحمد مختار عمر ينفي أن يكون في العربية الفصيحة تنغيم من النوع التمييزي، أي من النوع الذي يكون فيصلاً في التمييز بين المعاني بل إن ما يظهر منه مجرد عادات لهجية أو خاصة نطقية لفرد؛ يقول: "ومعظم أمثلة التنغيم في العربية ولهجاتها من النوع غير التمييزي الذي يعكس إما خاصة لهجية أو عادة نطقية للأفراد. ولذا فإن تعقيده أمر يكاد يكون مستحيلاً. وكل المحاولات التي قدمت حتى الآن لدراسة التنغيم في اللغة العربية قامت على اختيار مستوى معين من النطق، وعلى اختبار نغمات الصوت بالنسبة لفرد معين داخل هذا المستوى. ولكن التنوع بين الأفراد يحول بين الباحث وبين تعميم النتائج"¹⁷.

وأما الدكتور تهاّم حسان فإنه ينفي وجود ظاهرة التنغيم في التراث العربي، حيث ذهب إلى أن التنغيم في اللغة العربية الفصحى غير مسجل ولا مدروس، ومن ثمّ تخضع دراستنا إيّاه في الوقت الحاضر لضرورة الاعتماد على العادات النطقية في اللهجات العامية¹⁸.

والرد على هذه المزاعم لا يكون إلا بالرجوع إلى اللغة العربية الفصيحة، تلك اللغة التي ورثناها مع القرآن الكريم. فإذا ما تأملنا القرآن وجدنا فيه نماذج كثيرة يتحكم التنغيم في تحديد بنيتها التركيبية؛ ومن ثمة الدلالية. وسنورد في العنصر التالي بعض الأمثلة التي تثبت صحة ما نذهب إليه. على أننا نلتزم العذر لهؤلاء في أن التنغيم ظاهرة موسيقية لا يمكن

للكتاب أو الخط إثباتها ، إلا قليلا منها ، ولذا يبدو أن الأمر قد اختلط على هؤلاء ، إذ أنهم لما لم يجدوا دراسة واضحة للتنعيم وغياها للمصطلح الواضح الجامع توهموا أن التنعيم لم يوجد في اللغة ، وكأنهم اطمأنوا إلى أن ظاهرة متميزة مثل هذه ما كانت لتخفى على علماء العربية الأفاضل. يثبت ذلك ويؤازره أن تمام حسان أورد تقسيما للنغمات في اللغة العربية ، بينما قدم أحمد مختار نموذجا عن التنعيم في اللغة العربية ، مستشهدا بأية قرآنية.

وأما المسألة الثانية فهي: هل عرف الدارسون العرب القدامى التنعيم.

ولأن مصطلح التنعيم حديث ، فإن الاختلاف جرى حول كون العرب قد أغفلوا التنعيم ولم يتنبهوا له ، أم أنهم قد أدركوه وإن لم يكونوا خصوه بمصطلح وأفردوه بدراسة. وقد ذكرنا قبل قليل آراء المستشرق الألماني برجستراسر ومعه أحمد مختار عمر وتمام حسان ، فهم إذ ينفون وجود التنعيم ، فهم ينفون وجود أي دراسة قديمة له. وشييه بهم محمد الأنطاكي ؛ يقول: "قواعد التنعيم في العربية مجهولة تماماً ، لأنَّ النحاة لم يشيروا إلى شيء من ذلك في كتبهم"¹⁹. وكذلك رأى كاتنينو بأنه لا يمكن التعويل على التراث العربي في مسألة التنعيم ، لأنَّ النحاة لم يدرسوا هذه الظاهرة ، مستثنيا من ذلك دراسة الوقف ؛ يقول "لا يمكن أن نعول على النحاة القدامى فيما يخصَّ التطريز ، فهم لم يهتموا بكمية الحركات والإيقاع الشعري المبني على هذا الكم ، فإنَّهم لم يهتموا بنبذة الكلمة ولا بتنعيم الجملة ، واختصرت دراستهم على الوقف"²⁰.

ويقف الدكتور رمضان عبد التواب مترددا ، فهو من ناحية ينفي معرفة العرب القدامى لماهية التنعيم ، ولكنه يثبت إشاراتهم إلى وظائفه (التنعيم) في الكلام ؛ يقول: "إنَّ القداماء أشاروا إلى بعض آثار التنعيم ، ولم يعرفوا كنهه ، غير أننا لا نعدم عند بعضهم الإشارة إلى بعض آثاره في الكلام للدلالة على المعاني المختلفة"³¹. وإلى مثل هذا الرأي يذهب الأستاذ عبد السلام المسدي ، من وجود إشارات إلى التنعيم ، ولكنه لم يلق الاهتمام اللازم ولم يصل إلى درجة التقعيد ؛ يقول: "إنَّ التنعيم في العربية له وظائف نحوية ، لأنَّه يفرق بين أسلوب وآخر من أساليب التركيب ، ومع هذا فإنه لم يحظْ لدى أجدادنا ببحث مستفيض ، أو تطبيق مستند إلى قواعد محددة"²¹.

وفي مقابل هؤلاء ، يرى بعض الدارسين العرب المحدثين أن العرب في القديم قد أدركوا التنغيم ، وتخطوا له ، غير أن عدم إفراده بدراسة منفصلة جعلت بعض المعاصرين يتوهم عدم معرفتهم له .

ومن هذه الفئة نجد الدكتور كمال بشر يؤكد أن علماء العربية قديما قد عوا كنه التنغيم وأنه كان مستقرا في أذهانهم ، حيث ذكر بأن: "التنغيم بوصفه ظاهرة صوتية مهمة في عملية الفهم والإفهام وتنميط الجمل إلى أجناسها النحوية والدلالية المختلفة كان مستقرا أمره في وعي علماء العربية ، وإن لم يأتوا فيه بدراسة نظرية شاملة تحدد كنهه وطبيعته ودرجاته"²² . ونلاحظ من خلال هذا القول انتصارا للتراث العربي من طرف كمال بشر ، وتحمسا لإثبات قضية التنغيم في التراث العربي ، ونحن وإن كنا نَعْجَب ونسّر بما يذهب إليه كمال بشر لو كان صحيحا ، إلا أننا نتحفظ من هذه التأكيدات التي يكون فيها الدليل والحجة تخمينيا ، إذ نؤكد الحاجة إلى البحث عن الأدلة اللغوية الدامغة . وعلى شاكلة كمال بشر ، يتحمس الدكتور أحمد كشك للتنغيم في التراث العربي فنجد في كتابه من وظائف الصوت اللغوي يقول: "وقد ادى العرب ، وإن لم يربطوا ظاهرة التنغيم بتفسير قضاياهم اللغوية ، وهم وإن تاه عنهم تسجيل قواعد لها ، فإن ذلك لم يمنع من وجود خطرات ذكية لمأحة تعطي إحساساً عميقاً بأن رفض هذه الظاهرة تماماً أمر غير وارد ، وإن لم يكن لها حاكم من القواعد"²³ . وأما عبد الكريم مجاهد فيذهب عند حديثه عن الدلالة الصوتية والصرفية عند (ابن جني 392هـ) ، إلى أن ابن جني قد أدرك هذا الجانب ، ويرى أنه بذلك يظهر فضل ابن جني ، بجلاء ووضوح ، ويثبت أنه قد طرق باب هذه الموضوعات التي تعتبر من منجزات علم اللغة الحديث ، وبذلك تحفظ له أصالته ومساهمته²⁴ . وعلى النهج ذاته يسير سمير شريف استيتية ؛ فيذهب إلى أن علماء العربية الأوائل قد عرفوا التنغيم وأدركوا قيمته الوظيفية ، رغم أنه يلاحظ أن لا أحد من القدماء قد أفرد له بابا مستقلا يعالج فيه مفهومه وضروبه وأحكامه ووظائفه ، ويبرر ذلك بأنهم ربما توجهوا إلى ما هو أكبر منه ، أو أهم منه ، أو في سياق الرغبة في التوجه إلى ما هو أكثر رسوخا في الذات المعرفية²⁵ .

وخلاصة القول في هذه المسألة أن التنغيم كمفهوم لساني حديث لا يطابق تماما ما نجده عند العرب القدماء ، غير أن ذلك لا ينفي إدراكهم تأثيره في الكلام ، وفي أداء المعاني . وصحيح أيضا أننا نعدم أي حديث عن أنواعه ودرجاته وأسباب حدوثه ، مثلما لم يحظ بدراسة مستقلة ، ولكن أيضا لا نستطيع أن ننكر تلك اللمحات والإشارات المتفرقة بين النحو

والأصوات والقراءات ، والتي تستثمر التنغيم في مختلف التحليلات اللغوية ، بل إن كتب النحو والقراءات واللغة تزخر بكثير من التحليلات والتوجيهات التي يكون فيها أداء الجملة فيصلا في الحكم على معناها ، وربما تمثل لذلك بالمناظرة الشهيرة بين اليزيدي والكسائي ، إذ سأل اليزيدي الكسائي بحضرة الخليفة العباسي هارون الرشيد عن بيت من الشعر أنشده:

لا يكون العير مهرا لا يكون المهر مهراً

وقال له : هل ترى فيه من عيب ؟ فقال الكسائي : "قد أقوى الشاعر ، لا بد أن ينصب المهر الثانية على أنه خبر كان" فقال اليزيدي : أعد النظر ، فدافع الكسائي قوله ، فقال اليزيدي: الشعر صحيح ، إنما ابتدأ فقال: المهر مهر²⁶ .

وإنما تدلنا هذه النماذج على رسوخ فكرة الوقف والأداء عموماً في أذهان نحاة البصرة والكوفة ، وإن لم ينتبه الكسائي للوقف ، ولكن سكوته إقرار بسلامة تحليل اليزيدي. فإذا أخذنا بأن أوائل علماء العربية قد أدركوا وظيفة الأداء الصوتي المصاحب للكلام في توجيه المعنى والهبنى معا ، فكيف كان الحال مع من أتى بعدهم ؟ لا شك أنهم قد طوروا ذلك الإدراك ، وأمعنوا في الاستعانة به ، ولكن الكشف عن ذلك يتطلب دراسة واسعة وشاملة لتراثنا العربي اللغوي ، عموماً و النحوي خصوصاً.

3-وظائف التنغيم في اللغة العربية:

يكتسب التنغيم دوراً مهماً في اللغة العربية ، ويتجلى ذلك من خلال مجموعة الوظائف التي يؤديها ، ويحصرها الباحثون في وظيفة أدائية ووظيفية اجتماعية ووظيفة نحوية ووظيفة دلالية.

3-1-الوظيفة الأدائية:

والمقصود بها تلك الطريقة الصوتية في أداء الكلام ، إذ أن الكلام العربي لا يكون على نسق واحد من النغمات ، وإنما يكون حال المتكلم أن يلون كلامه بموسيقى مختلفة صعوداً وهبوطاً على طريقة العرب في التعبير عن أفكارهم وانفعالاتهم بواسطة الكلمات. والحقيقة أن ذلك هو جوهر اللغة ، وإذ نقول هذا الكلام ؛ فإننا نستحضر بين أذهاننا تعريف ابن جني للغة بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، وهي إشارة ذكية منه إلى أن الصوت يعبر

عن الغرض ويناسبه ، أو أن لكل غرض معين صوتا معيناً يفى بالتعبير عنه ، وأن اللغة أصوات قبل أن تكون كلمات أو تراكيب.

إذاً ، فالتنغيم يعبر عن أداء سليم للغة ، فنغمات الكلام دائماً في تغير من أداء إلى آخر ، ومن موقف إلى موقف ، ومن حالة نفسية إلى أخرى. وللنغمات مدى من حيث الارتفاع والانخفاض تحسه الأذن المدربة ، فعندما ترتفع درجة التلوين الموسيقي نحصل على تنغيم مرتفع. وإمكانات التنوع في النغمات واسعة إلى حد كبير ، وفقاً لنوع الكلام وظروفه²⁷ . وفي الواقع ، فإن الطريقة التي نقرأ بها قصيدة تختلف عن تلك التي نتلو بها آية ، وهكذا يمكننا القول أن لكل نوع من النصوص طريقة مختلفة من الأداء ، تتناسب مع طبيعة النص وسياقه وشكله وأسلوبه. بل إن النص الواحد أحياناً قد يقتضي أساليب مختلفة من الألحان والنغمات ، وتلاوة القرآن الكريم وترتيله خير دليل على ذلك ، إن أن سياق الترهيب يختلف عن سياق الترغيب ويختلف عن سياق الوعيد ، ومن المؤكد أن القراء يحترمون هذا الاختلاف في الأداء رغم أنه ليس مسجلاً في كتابة النص ، أعني ليس مسجلاً في المصحف. وينسحب هذا الحكم على كل النصوص في العربية. ويؤكد الدكتور سمير شريف استيتية أن التنغيم "يكتسب دوراً مهماً في التقرير ، والتوكيد ، والتعجب ، والاستفهام ، والنفي ، والإنكار ، والتهكم ، والزجر ، والموافقة ، والرفض ، والقبول ، وغيرها من أنواع الفعل الإنساني ، كالغضب ، واليأس ، والأمل ، والفرح ، والحزن ، وبيان الحال ، الغنى ، والفقر ، والشك ، واليقين ، والإثبات ، واللامبالاة ، والإقناع. عن طريق التلوين الموسيقي في الدرجات التنغيمية"²⁸.

وليست مسألة التنغيم اختيارية في الأداء ، بل هي ضرورية واجبة ، وهي وظيفة أدائية يتم بها نطق الجملة حسب نظم الأداء فيها ، وحسب ما يقتضيه عرف أهل اللغة. ولا نتحدث هنا عن إفادة المعنى ، فحتى بدونها ، يكون من سلامة اللغة سلامة النطق والأداء ، ونتيجة لذلك اهتم العلماء والباحثون بالتأليف في هذا المجال ، ومن ذلك الكتاب الذي ألف الأستاذ كمال بشر تحت عنوان : "فن القول" والذي عالج فيه موضوع الأداء في اللغة العربية ، فيجعل تنغيم الجملة أحد أهم شروط الأداء السليم²⁹.

3-2-الوظيفة النحوية:

تتمثل هذه الوظيفة في أن التنغيم بأنماطه المتنوعة هو عنصر مهم في التمييز بين الوظائف النحوية ، فله دور أساسي في تحديد نوع الجملة من الخبرية إلى الاستفهامية إلى التعجبية ، وله دور في تحديد مواقع الكلمات داخل النظام النحوي ، وله دور في تحديد معاني بعض الحروف والأسماء داخل الجملة ، بل يكون أحيانا دليلا على حذف وقع داخل الجملة.

والوظيفة النحوية من أهم وظائف التنغيم ، ذلك أنها قد تقوم مقام البنية المثبتة خطأ بواسطة الكتابة ، وقد تلغي أحيانا مفعول بعض الأدوات ، وتغير مجرى الكلام من الاستفهام إلى الخبر ، أو إلى التعجب ، ومن التقرير إلى الإنكار أو التوبيخ ... وهكذا. ويرى الدكتور كمال بشر أن التنغيم عامل أساسي في بيان وتمييز الوظائف النحوية ؛ يقول: " الوظيفة النحوية هي الوظيفة الأساسية للتنغيم ، إذ هي العامل الفاعل في التمييز بين أنماط التركيب والتفريق بين أجناسها النحوية ، ومن ثم يمكن للدارس تحليل مادته تحليلًا علميًا دقيقًا ، حسب إطارها الصوتي ، وكيفيات أدائها الفعلي.

فالتنغيم بأنماطه المتنوعة عامل أساسي في بيان أن المنطوق مكتمل في مبناه ومعناه أم غير مكتمل. ويظهر ذلك بوضوح في الجمل الشرطية"³⁰. والحق أن هذه الوظيفة (النحوية) تظهر بوضوح في الشرط ، ولكنها تكون أوضح في الاستفهام والتعجب.

فمن الوظائف النحوية للتنغيم تصنيف الجمل إلى أنواعها المختلفة من تقريرية و استفهامية وتعجبية. فقد تأتي الجملة مستهلة بأداة استفهام ولكننا مع ذلك لا نصنفها جملة استفهامية ، ومن ذلك ما يورده المفسرون في تفسير بعض الآيات كقوله تعالى في سورة الزمر ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر 09].. فالجملة تبدأ بحرف استفهام ، ولكنها ليست جملة استفهامية ، وليست جملة طلبية ، وهذا الاستفهام لا يحتاج إلى إجابة ، وإنما الغرض منه التّفي ، والسماع يعرف ذلك ، ويدركه من تنغيم الجملة ، لقد نقل التنغيم الجملة من الاستفهام إلى التّفي. ومثل ذلك في قوله تعالى ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ 17]. وللهولة الأولى تبدو الجملة استفهامية يتصدرها حرف استفهام ، فإذا نحن قرأنا الآية وقلبناها في أذهاننا تبين لنا أنها تقريرية أو أنها نفي ، ولكن ليس استفهاما ، والذي يعطينا هذا الحكم هو تنغيم الجملة.

وكما ينقلب أسلوب الاستفهام تقريراً ، ينقلب التقرير استفهاماً ، ومن ذلك تفسير قوله تعالى في سورة الشعراء : ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمَّتْهَا عَلَيَّ﴾ [الشعراء 22] فقد ذكر الفراء أنه يجوز حذف همزة الاستفهام " وتابعه الأخفش (ت 210هـ) فأوضح أن قوله تعالى : (وتلك نعمة تمَّتْها عليّ) ، فهذه الآية الكريمة تقرأ بنغمة صوتية مستوية ، مفيدة الاستفهام ، وملاك القول فيها أنَّ الاستفهام مفهوم من سياق الجملة بما يرافقها من تنغيم هو في الأصل صورة من صور التعبير ، إذ النظرة الأولى إلى هذه الآية مكتوبةً توهم أنَّها لا تكون إلا جملة خبرية إثباتية ، ولكنها قد تكون بالتنغيم إنشائية استفهامية . وعلى تقدير الاستفهام ، أتمَّتْها عليّ .. ؟ ³¹ وهذا في قول عمر بن أبي ربيعة :

فو الله ما أدري ، وإن كنت دارياً بسبع رمين الجمر أم بثمان ؟

فلفظ الجملة يوحي بأنها تقريرية ولكن الجملة في حقيقتها استفهامية . والذي يرجح هذا القول هو تنغيم الجملة ⁴⁴ . ومثل ذلك أيضاً قوله :

ثم قالوا تحبها قلت بهرا عدد النجوم والحصى والتراب .

فالعامل الفاعل في الحكم على أن جملة "تحبها" جملة استفهامية إنما هو التنغيم ، الذي جاء في صورة نغمة صاعدة دليلاً على الاستفهام دون ذكر الأداة الصرفية . وقد يعتمد بعضهم - جريا على التقاليد الموروثة - إلى تقدير همزة محذوفة في هذا المثال ونحوه كما فعلوا في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحریم 01] ³² ، وأمثلة هذا كثيرة جداً في الكلام العرب وفي القرآن الكريم ، مما يعني استقرار اللسان العربي على هذه الطريقة في أداء الجمل ، وأن الكلام المكتوب ليس أميناً بما فيه الكفاية لنقل المعاني ، لعدم قدرته على نقل الأداء ، فيحصل الخلاف في تفسير النصوص وتأويلها ، ويكون التنغيم غالباً فيصلاً في كثير من النصوص . بل لا بد أن نستذكر حقيقة أن النحاة عندما أخذوا يحصلون الشواهد من كلام العرب الخلس إنما كان ذلك مشافهة ، فهم قد خرجوا إلى البوادي وسمعوا من الأعراب ، بما يجبرنا على التفكير في فاعلية أداء الأعراب ، وهم أصحاب فصاحة وأهل بيان .

فالتنغيم إذا يقوم مقام الأدوات النحوية في تحديد أنواع الجمل ، بل ويلغي أحياناً عمل بعضها ، وليس الأمر مقتصرًا على الاستفهام ، ففي مثل قوله تعالى ﴿يوسف أعرض عن هذا

واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴿[يوسف 29] ، لا وجود لحرف النداء ، ولكن قراءة الآية على ما يقتضيه السياق تجعل من الآية نداء³³ ، ولا نرى ضرورة للقول بأنه نداء بحرف نداء محذوف الأصل فيه الياء بمعنى : يا يوسف ، بل الأقرب إلى طبيعة اللغة والوصف اللغوي أن نجعل التنغيم فيصلا في الحكم ، ونكف عقلنا النحوي عن التقدير والتأويل .

ويمكن الاعتماد على التنغيم في تحديد وظائف بعض الكلمات في الجمل ، ومنها تحديد الموقع الإعرابي للفظ (الله) في قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [يوسف 66] ، فإن لفظ الجلالة (الله) ليس في محل الفاعلية للفعل قال ، ولكن فاعل قال ضمير مستتر يعود على سيدنا يعقوب ، وإنما لفظ الجلالة في محل رفع مبتدأ بعد الاستئناف . ومنها "كم" ، فهي استفهامية للسؤال عن العدد والكم ، وهي قد تكون خبرية للتكثير المقرون بمعاني الإنكار أو التعجب أو الدهشة ، ومثال ذلك قول المتنبي:

كم قد دفنت وكم قد متّ عندكم ثم انتفضت فزال القبر والكفن

فلا شك أن قراءة هذا البيت هي التي تمنحنا اليقين بأن الاستفهام ليس هو المعنى المقصود من كم ، ولكنه للتكثير ، ومثله قول جرير:

كم عمة لك يا جرير وخالة فدعاء قد حلبت عليّ عشاري

والفرق بين أسلوب الاستفهام وأسلوب التقرير واضح من خلال النغمة الصاعدة في الاستفهام ، والمستوية في التقرير . وهكذا نلاحظ ، ونرى أن إدراج التنغيم ، أو السياق الصوتي في النحو العربي أي في نظرية النحو ، كان عملا صائبا من قبل نحاة العربية ، ولو أنهم أقروه عاملا أو قرينة لكان من الثمار والنتائج ما يسد علينا كثيرا من الذرائع التي يتوسل بها أنصار التيارات اللسانية المعاصرة ، الداعين إلى ردم النظرية النحوية العربية ، وتعويضها بمجموعة مقترحات علم اللغة الحديث .

3-3-الوظيفة الدلالية:

تصب الوظائف الثلاث السابقة في جدول الوظيفة الدلالية ، وهذه طبيعة المباحث الدلالية في كل حال ، إذ تنتظم في ثناياها كل مستويات التحليل اللغوي . إذ تعبر الوظيفة الاجتماعية عن اختلاف أداء المعنى بين الطبقات ، وأما الأدائية فتعبر عن ضرورة اصطباغ

الكلام بألوان من الموسيقى تجعله دالا على المعاني، والنحو والدلالة لا ينفك أحدهما عن الآخر، فاختلاف المبني يقابله على الأغلب الأعم اختلاف في المعنى، ولا شك.

ويشير الباحثون إلى أن اختلاف النغمات راجع إلى اختلاف المواقف، وأنه من ضرورات الأداء، فليس من العربية أن يتكلم أحد بوتيرة صوتية في أحوال نفسية ومواقف اجتماعية مختلفة، لأن طبيعة اللغة وقوانينها وعرف المتكلمين بها يبيان ذلك³⁴. وهكذا فإن المتتبع لكلام الناس يلحظ التنغيم ظاهرا في كلامهم؛ فحديث التواصل بينهم، وخطابهم بعضهم بعضا يكون التنغيم فيه أوسع من الكلام المكتوب. ولهذا فقد عالجت النظرية التداولية - ضمن دراستها للغة في إطار الاستعمال - الكثير من القضايا التي يكون التنغيم داخلا تحت نطاقها، كأفعال الكلام، والاستلزام الحواري والقول المتضمن، ولكن بشكل خاص في الحجاج، وليس هذا جوهر البحث، وإلا لتوسعنا بالشرح والتمثيل.

وفيما يلي بعض النماذج التي يكون التنغيم فاصلا في تعيين المراد من القول، أي في تحديد دلالته:

فمنها مثلا قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [يوسف 75]، فيكون تنغيم الجزء الثاني محورا رئيسا في تحديد معنى الآية، فتقرأ فيها جزاؤه الأولى بنغمة الاستفهام، وما بعدها إجابة عن الاستفهام، أو تقرؤ جملة واحدة على التقرير، أو تقرؤ الأولى استفهاما مقرونا بالتعجب والإنكار، والجواب يكون بـ "من وجد في رحله فهو جزاؤه"³⁵، وهي تنم عن ثقة تامة بأنهم ليسوا سارقين، عكس الاستفهامية التي تدل على المفاجأة من التساؤل عن الجزاء، وأما التقريرية فعلى اعتبار معرفة حد السرقة وتعارف أهل مصر عليه.

ومن أمثلة ذلك أيضا قوله تعالى ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس 52]، فالوقف على هذا يقلب معنى الجملة إلى النفي، على أن معناها الحقيقي غير ذلك وهو الإثبات، إثبات المشركين واعترافهم بصدق المرسلين.

ومثلها قوله في سورة الكهف ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1) قَتْمًا ..﴾ [الكهف 1-2] فإن السكته الخفيفة على عوجا تقيد بانقطاع الكلام، واستئناف ضرب جديد من معانيه، أو لاستحالة العوج قيما، وهذا محال عقلا، مرفوض

عرفا ، فالسكت هنا وهو من تنعيم الجملة قد أدرى الدور الرئيس في تحديد معنى النص ودلالته .

خاتمة:

بعد تمام هذا المقال توصلنا إلى النتائج التالية:

- 1- التنعيم مكون أساسي من مكونات اللغة ، وهو ليس ثانويا ، وإن لم يكن خطيا ، ولكنه يؤدي وظائف مهمة ، شأنه في ذلك شأن كل الوحدات اللغوية .
- 2- التنعيم خاصية تجمع كل اللغات أو جلها ، والعربية قد عرفت التنعيم قديما ، ونصوص القرآن والشعر وكلام النحاة والمفسرين خير دليل على ذلك . كما أنّ دراستهم لبعض الظواهر اللغوية وتفسيرهم لآليات استغالها يوحى بإدراك عميق للظاهرة وتأثيرها على أداء المعنى وعلى المتلقي على حد سواء .
- 3- لم يغب التنعيم عن ذهن علماء العربية القدماء على اختلاف مشاربهم ، ويظهر ذلك من خلال تحليلاتهم ، ومن خلال اعتمادهم عليه في ترجيح معنى أو إعراب أو حكم .
- 4- أنواع الوقف في القراءات تحتاج إلى دراسة لأن النغمات التي تنشأ عنها متباينة وتؤدي معاني مختلفة .
- 5- يبدو التنعيم عاملا مهما في تحديد الوظائف النحوية في بعض السياقات ، ولذا تحتاج العربية إلى دراسة شاملة ربما- تمكن من استثماره بشكل أوسع في إطار النظرية النحوية العربية .
- 6- مازال موضوع التنعيم بحاجة إلى مزيد من الدراسات وهنا أخص بالذكر إمكانية استغلال التكنولوجيا الحديثة في تحليل الصوت اللغوي ودراسة منحنيات التنعيم واتجاه الدلالة وتوجيه القصد ، بما في ذلك استثمار الأجهزة والتطبيقات والبرامج الالكترونية .

هوامش البحث:

- ¹ - أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية ، دراسة لسانية في الصواتة الإيقاعية ، عالم الكتب الحديث ، ط1 ، إربد-الأردن ، 2012 ، الجزء الأول ، ص 01.
- ² - أحمد أبو اليزيد علي الغريب: التنغيم في إطار النظام النحوي ، مجلة جامعة أم القرى للبحوث المحكمة ، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية ، السنة العاشرة ، ع 14 ، 1996 ، ص 284.
- ³ - بن منظور محمد بن مكرم بن علي ، جمال الدين الإفريقي المصري: لسان العرب ، دار صادر روت : ب-ت ، مادة (لحن) ، 12/590 .
- ⁴ - إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، دط ، 1961 م ، ص 176 .
- ⁵ - المرجع نفسه ، ص 176.
- ⁶ - محمد علي الخولي : معجم علم الأصوات ، ط1 ، 1986 ، ص 47.
- ⁷ - مزاحم حسن مطير: أثر التنغيم في توجيه الأغراض البلاغية "الاستفهام أنموذجاً" ، مجلة جامعة القادسية في الآداب والعلوم التربوية ، الأردن ، العددان 3 و 4 ، المجلد 6 ، 2007 ، ص ص 39-40.
- ⁸ - المرجع نفسه ، ص 39.
- ⁹ - مالبيرغ برتيل: علم الأصوات ، تر: عبد الصبور شاهين ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ط 1977 ، ص 209.
- ¹⁰ - عبد العليم البركاوي عبد الفتاح ، مقدمة في علم أصوات اللغة العربية وفن الأداء القرآني ، ط 3 ، 2004 ، ص 204.
- ¹¹ - تهم حسان: العربية معناها ومبناها ، دار الثقافة ، مصر ، د-ت ، ص 226.
- ¹² - باي ماريو ، أسس علم اللغة ، تر: أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط 3 ، 1987 ، ص 92.
- ¹³ - بشر كمال ، علم الأصوات ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، دط ، 2000 ، ص 531.
- ¹⁴ - أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية ، ج 1 ، ص 246.
- ¹⁵ - كمال الدين حازم علي: دراسة في علم الأصوات ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط 1 ، 1999 ، ص 103.
- ¹⁶ - برجستراسر: التطور النحوي للغة العربية ، تر: رمضان عبد التواب ، مطبعة الخانجي ، القاهرة ، ط 2 ، 1994 .
- ¹⁷ - أحمد مختار عمر ، دراسة الصوت اللغوي ، عالم الكتب ، القاهرة ، دط ، 1976 ، ص 310..
- ¹⁸ - تهم حسان ، العريبي معناها ومبناها ، ص 228.
- ¹⁹ - عبد التواب رمضان ، مدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 1 ، 1985 ، ص 106.
- ²⁰ - عوض سامي ، دور التنغيم في تحديد معنى الجملة العربية ، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية ، الأردن ، ع 01 ، 2006 ، ص 90.
- ²¹ - التفكير اللساني في الحضارة العربية ، الدار العربية للكتاب ، ط 1 ، 1981 ، ص 226.
- ²² - بشر كمال ، علم الأصوات ، ص 552.

- ²³-عوض سامي ، دور التنغيم في تحديد معنى الجملة ، ص 90.
- ²⁴-مجاهد عبد الكريم ، الدلالة الصوتية والدلالة الصرفية عند ابن جني ، مجلة عالم الفكر ، السنة الرابعة ، ع 26 ، آذار 1982 ، ص 79.
- ²⁵-استيتية سمير شريف ، علم اللسانيات الحديثة ، دار الصفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، عمان الأردن ، ط 1 ، 2002 ، ص 378.
- ²⁶-كشك أحمد ، من وظائف الصوت اللغوي ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط 1 ، 2006 ، ص 61.
- ²⁷-بشر كمال ، علم الأصوات ، ص 534.
- ²⁸-استيتية سمير شريف ، علم اللسانيات الحديثة ، ص 376.
- ²⁹-انظر : كمال بشر ، فن الكلام ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط 1 ، 2003.
- ³⁰-بشر كمال ، علم الأصوات ، ص 541.
- ³¹-عوض سامي ، دور التنغيم في تحديد معنى الجملة العربية ، ص 100.
- ³²-بشر كمال ، علم الأصوات ، ص 544.
- ³³-استيتية سمير شريف ، علم اللسانيات الحديثة ، ص 377.
- ³⁴-بشر كمال ، علم الأصوات ، ص 539.
- ³⁵-أحمد مختار عمر ، دراسة الصوت اللغوي ، ص 368.